سورة الزمر

هى مكية إلا الآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ فمدنيات ، وآياتها خمس وسبعون نزلت بعد سبأ .

ووجه اتصالها بما قبلها :

(١) إنه وصف القرآن فى آخر سورة ص بقوله : « إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ» ووصفه هنا بقوله : « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » .

(٢) إنه ذكر فى ص أحوال الخلق من المبدإ إلى المعاد ، وذكر هنا مثله — إلى نحو ذلك من وجوه الربط تظهر بالتأمل .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) .

الإيضاح

(تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) أى هذا الكتاب العظيم منزل من عنده تعالى ، فهو الحق الذى لا مرية فيه كما جاء فى آية : « وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ

الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » وجاء فى قوله : « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ . تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .

و بعد أن بين شأن المنزَّل وأنه من عند الله — ذكر ما اشتمل عليه ذلك المنزل من الحق والعدل فقال :

(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) أى إنا أنزلنا إليك القرآن أيها الرسول آمرا بالحق والعدل الواجب اتباعهما والعمل بهما .

ثم أمر رسوله بعبادته والإخلاص له فقال :

(فاعبد الله مخلصا له الدين) أى فاعبده تعالى ممحضا له الدين من شوائب الشرك والرياء على حسب ما أنزل الله فى تضاعيف كتابه ، وأعلم الناس أن العبادة لاتصلح إلا له وحده ، وأنه ليس له ندّ ولا شريك .

ثم أكد هذا الأمر بقوله :

(ألا لله الدين الخالص) أى ألا لله العبادة والطاعة وحده لاشركة لأحد معه فيها ، لأن كل ما دونه ملكه ، وعلى المملوك طاعة مالكه ، وفى حديث الحسن عن أبى هريرة «أن رجلا قال يا رسول الله : إنى أتصدق بالشىء وأصنع الشىء أريد به وجه الله وثناء الناس . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفس محمد بيده ، لايقبل الله شيئا شورك فيه ، ثم تلا : (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) » .

و بعد أن أبان أن رأس العبادة الإخلاص لله — أعقب ذلك بذم طريق المشركين فقال :

(والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) أى والذين اتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم ، يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا عند الله منزلة و يشفعوا لنا عنده فى حاجتنا .

ومن حديث عبادتهم للأصنام أنهم جعلوا تماثيل للكواكب ، والملائكة ، والأنبياء ، والصالحين الذين مضوا ، وعبدوها باعتبار أنها رمز إليها ، وقالوا إن الإله الأعظم أجلّ من أن يعبده البشر مباشرة ، فنحن نعبد هذه الآلهة وهى تعبد الإله الأعظم .

وهذه شبهة تمسك بها المشركون فى قديم الدهر وحديثه ، وجاءت الرسل مفندة لها ماحية لها من الأذهان العالقة بها ، موجهة العقول إلى إفراد الله وحده بالعبادة كما قال : « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » وقال : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ » . قال قتادة : كانوا إذا قيل لهم من ربكم ومن خالقكم ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء ؟ قالوا الله . فيقال لهم فلم تعبدونهم ؟ قالوا ليقربونا إلى الله زلفى ويشفعوا لنا عنده ، فرد الله عليهم بقوله : « فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ » .

ثم هددهم و بين لهم عاقبة ما يفعلون فقال :

(إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون) أى إن الله يحكم بينهم و بين خصومهم وهم المحقون فيما اختلفوا فيه من التوحيد والإشراك يوم القيامة ، ويجازى كلا بما هو أهل له ، فيدخل المخلصين الموحدين الجنة ، ويدخل المشركين النار .

(إن الله لايهدى من هو كاذب كفار) أى إن الله لايرشد إلى الحق ولا يوفق إليه من هو كاذب مفتر عليه ، بزعمه أن له ولدا وأن له نِدّا وأن الأوثان تشفع لديه إلى غير ذلك من الترّهات والأباطيل التى لايقبلها العقل ولا تجد لها مستندا من نقل .

ثم فصل ما كذبوا فيه فقال :

(لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء) أى لو أراد الله أن يتخذ ولدا ـ ولا ينبغى له ذلك ـ لما رضى إلا بأكمل الأولاد وهم الأبناء ، فكيف نسبتم إليه البنات ؟ .

ثم نزه سبحانه نفسه عن أن يكون له ولد فقال :

(سبحانه هو الله الواحد القهار) أى تقدس الله أن يكون له ولد ، فإنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، وكل ما سواه مفتقر إليه ، وهو الغنى عما سواه ، قهر الأشياء فدانت له ، وتسلط على المخلوقات بقدرته فذلت له ، تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦) .

شرح المفردات

التكوير فى الأصل : اللف واللى من كار العمامة على رأسه وكوّرها ؛ والمراد يذهب الليل ويغشى مكانه النهار ، والعكس بالعكس ، وسخر الشمس والقمر جعلهما منقادين له ، والأجل المسمى : يوم القيامة ، والظلمات الثلاث : ظلمة البطن وظلمة الرّحم وظلمة المَشِيمة ، تصرفون : أى يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أنه منزه عن الولد بكونه إلها قهارا ، وأن كل المخلوقات فى قبضته وسلطانه — أردف ذلك بما يدل على كمال قدرته بآياته التى أوجدها

فى الأكوان ، وفى خلق الإنسان ، فبسط سلطانه على الشمس والقمر وذللهما وجعلهما يجريان فى ذلك الملكوت الذى لايعلم مداه إلا هو ، كما خلق الإنسان الأول وجعل له زوجا من جنسه ، وخلق ثمانية أزواج من الحيوان ذكر وأنثى فكانت نواة التناسل فى هذه الأنواع ، فهل بعد هذا يجد العاقل مَعْدِلا عن الاعتراف بربوبيته ، وعظيم قدرته .

الإيضاح

(خلق السموات والأرض بالحق) أى خلق هذا العالم العلوى على ما فيه من بديع الصنع من شموس وأقمار ، تكوّن الليل والنهار ، والعالم السفلى المشتمل على المواليد الثلاثة من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، وسخر كل ما فيه ظاهرا وباطنا لانتفاع الإنسان فى سبل معايشه إذا استعمل عقله واستخدم فكره فى استنباط مرافقه — خلقهما على أكمل وجه ، وأبدع نظام ، قائمين على الحق والصواب ، والحكم والمصالح .

وبعد أن أبان أنه خلقهما ذكر سبيل تصرفه فيهما فقال :

(يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل) أى يُغْشِى كلا منهما الآخر كأنه يلفه عليه لف اللباس على اللابس ، أو يجعلهما فى تتابعهما أشبه بتتابع أكوار العمامة بعضها على بعض ، ألا ترى إلى الأرض وقد دارت حول نفسها وهى مكورة فأخذ النهار الحادث من مقابلتها للشمس يسير من الشرق إلى الغرب ويلف حولها طاويا الليل ، والليل من الجهة الأخرى يلتف حولها طاويا النهار ؛ فالأرض كالرأس والظلام والضياء يتتابعان تتابع أكوار العمامة ، ويلتفان متتابعين حولها .

وفى هذا إيماء إلى كروية الأرض أولا ، وإلى دورانها حول نفسها ثانيا ، فتكوير الأرض ظاهر الآية ، ودورانها أتى تابعا بالرمز والإشارة .

(وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) أى وجعل الشمس والقمر

وهما وسيلتا الليل والنهار منقادين له (وأكثر مصالح العالم مرتبطة بهما) يجريان لمنتهى دورتهما، ومنقطع حركتهما، وهو يوم القيامة، (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ).

ثم ذيل الكلام بالجملة الآتية ترغيبا فى طلب المغفرة بالعبادة والإخلاص، والتحذير من الكفر والمعاصى، فقال:

(ألا هو العزيز الغفار) أى ألا إن الله الذى فعل هذه الأفعال، وأنعم على خلقه بهذه النعم — هو القادر على الانتقام ممن عاداه، الغفار لذنوب عباده التائبين.

ولا يخفى ما فى هذا من الدلالة على كمال قدرته، وكمال رحمته؛ فهو القهار ذو القوة المتين، الغفار لذنوب التائبين.

وبعد أن ذكر الدلائل التى بثها فى العالم العلوى — أردفها بذكر الدلائل التى أودعها فى العالم السفلى، وبدأها بخلق الإنسان، لأنه أعجب ما فيه، لما فيه من العقل وقبوله الأمانة الإلهية ولله در من قال:

وتزعم أنك جِرْمٌ صغير وفيك انطوى العالَمُ الأكبرُ

(خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها) أى خلقكم على اختلاف ألسنتكم وألوانكم — من نفس واحدة وهى آدم، ثم جعل من جنسها زوجها وهى حواء، ثم ثنى بخلق الحيوان فقال:

(وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) أى وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج وهى التى ذكرها فى سورة الأنعام «ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ» أى ذكر وأنثى لكل منها.

ثم ذكر سبيل خلق ما ذكر من الأناسى والأنعام فقال:

(يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق) أى يبتدئ خلقكم أيها الناس فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق، فيكون أحدكم أولا نطفة، ثم يكون علقة،

obeikandl.com

ثم يكون مضغة ، ثم يكون لحما وعظاما وعصبا ، و ينفخ فيه الروح فيصير خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

(فى ظلمات ثلاث) أى فى ظلمات أغشية ثلاثة جعلها المولى سبحانه وقاية للولد وحفظا له من التعفن ، قال الدكتور عبد العزيز باشا إسماعيل فى كتابه [الإسلام والطب الحديث] : يعلمنا القرآن أن الجنين له ثلاثة أغشية سماها ظلمات : هى الغشاء المنبارى ، والخربون ، والغشاء اللفائفى ، وهى لاتظهر إلا بالتشريح الدقيق ؛ وتظهر كأنها غشاء واحد بالعين المجردة اهـ .

و بعد أن ذكر هذه الأفعال العجيبة ذكر موجدها ومنشئها فقال :

(ذلكم الله ربكم) أى ذلكم العظيم الشأن الذى عددت أفعاله — هو الله مربيكم فيما ذكر من الأطوار وفيما بعدها ، المستحق لتخصيص العبادة به سبحانه .

(له الملك) على الإطلاق فى الدنيا والآخرة .

(لا إله إلا هو) أى لاتنبغى العبادة إلا له وحده لاشريك له .

(فأنى تصرفون ؟) أى فكيف تصرفون عن عبادته تعالى مع وفور موجباتها ودواعيها ، وانتفاء ما يصرف عنها — إلى عبادة غيره سبحانه من غير داع إليها مع كثرة ما يصرف عنها .

والخلاصة — كيف تعبدون معه سواه ؟ أين ذهبت عقولكم ؟ وكيف ضاعت أحلامكم ؟

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ

مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) .

شرح المفردات

منيبا : أى راجعا إليه مطيعا له ، خوّله ملّكه ؛ وأنشد أبو عمرو بن العلاء لزهير ابن أبى سلمى :

هنالك إنْ يُسْتَخْوَلُوا المال يُخْوِلُوا وإن يُسْأَلُوا يُعْطُوا وإنْ يَيْسِرُوا يُغْلُوا

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على وحدانيته تعالى وذكر أن المشركين عبدة الأصنام لادليل لهم على عبادتها ، وكأنّ عقولهم قد ذهبت حين عبدوها — أعقب ذلك ببيان أنه هو الغنى عما سواه من المخلوقات ، فهو لا يريد بعبادته جر منفعة ولا دفع مضرة ، ولكنه لايرضى الكفر لعباده ، بل يرضى لهم الشكر ، وأن كل نفس مطالبة بما عملت ، وبعدئذ تردّ إلى عالم الغيب والشهادة فيجازيها بما كسبت ، ثم أتبعه بذكر تناقض المشركين فيما يفعلون ، فإذا أصابهم الضر رجعوا فى طلب دفعه إلى الله ، وإذا ذهب عنهم عادوا إلى عبادة الأوثان ، وقد كان العقل يقضى بأنهم وقد علموا أنه لايدفع الضر سواه — أن يعبدوه فى جميع الحالات ، ثم أمر رسوله أن يقول لهم متهكما موبخا تمتعوا بكفركم قليلا ثم مصيركم إلى النار وبئس القرار .

الإيضاح

(إن تكفروا فإن الله غنى عنكم) أى إن تكفروا به سبحانه مع مشاهدة ما يوجب الإيمان والشكر فإن ذلك لايضيره شيئا ، فهو الغنى عن سائر المخلوقات كما قال تعالى حكاية عن موسى: «إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ »

وجاء فى صحيح مسلم « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا » .

ثم ذكر ما يحبه سبحانه وما يكرهه فقال :

(ولا يرضى لعباده الكفر) أى لايحبه ولا يأمر به ، لأنه مانع من ارتقاء النفوس البشرية بجعلها ذليلة خاضعة للأرباب المتعددة والمعبودات الحقيرة من الخشب والنصب وممن يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .

(وإن تشكروا يرضه لكم) لأنه على مقتضى السّنن القويم ، والصراط العادل المستقيم كما قال : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » .

ثم ذكر أن كل إنسان يوم القيامة يجازى بما قدم من عمل ولا يضيره عمل سواه فقال :

(ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى ولا تحمل أىّ نفس أوزار نفس أخرى ، بل كل مطالب بعمل نفسه خيرا كانت أو شرا .

ثم بين أن جزاء المرء فى الآخرة على وفق ما عمل فقال :

(ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون) أى ثم مصيركم يوم القيامة إلى خالقكم البصير بأمركم العليم بالسر والنجوى ، فيخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا ، إذ لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، ثم يجازى المحسن منكم بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، فاحذروا أن تلقوا ربكم وقد عملتم فى الدنيا ما لايرضاه فتهلكوا .

ثم بين أن هذه المجازاة ليست بالعسيرة عليه سبحانه فقال :

(إنه عليم بذات الصدور) أى إنه تعالى محص جميع أعمالكم حتى ما تضمره صدوركم مما لاتدركه أعيانكم ، فكيف بما رأته العيون وأدركته الأبصار .

ثم بين سبحانه شأن الكافر بالنسبة إلى ربه فقال :

(وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوّله نعمة منه نسى ما كان

يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله) أى و إذا أصاب الكافر بلاء فى جسده أو شدة فى معيشته أو خوف على حياته — استغاث بربه الذى خلقه ورغب إليه فى كشف ما نزل به ، تائبا إليه مما كان عليه من قبل ذلك من الكفر به و إشراك الآلهة والأوثان فى عبادته ، ثم إذا منحه نعمة منه فأزال ما به من ضرّ ، وأبدله بالسقم صحة ، وبالشدة رخاء — ترك دعاءه الذى كان يدعوه من قبل أن يكشف ما كان به من ضرّ ، فجعل لله شركاء وأضل الناس ومنعهم من توحيده والإقرار به والدخول فى الإسلام .

ثم أوعده وهدده على ما فعل فقال :

(قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار) أى قل أيها الرسول لمن فعل ذلك : تمتع بما أنت فيه من زخرف الدنيا ولذاتها ، منصرفا عن النظر إلى أدلة التوحيد التى أوجدها الله فى الأكوان ، وجعلها فى نفس الإنسان ، زمنا قليلا إلى أن تستوفى أجلك ، وتأتيك منيتك ، ثم أنت بعد ذلك من أصحاب النار المخلدين فيها أبدا .

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩) .

شرح المفردات

القانت : القائم بما يجب عليه من الطاعة ، آناء الليل : ساعاته واحدها آن ، يحذر الآخرة : أى يخشى عذابها .

المعنى الجملى

بعد أن أبان صفات المشركين الضالين ، وذكر تقلقلهم واضطرابهم فى العبادة ، إذ يرجعون إلى الله فى وقت الشدة و يعودون إلى الأوثان حين الرخاء — أردفه بذكر

أحوال المؤمنين القانتين الذين لايعتمدون إلا على ربهم ، ولا ينيبون إلا إليه ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه .

الإيضاح

(أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) أى أأنت أيها المشرك أحسن حالا ومآلا أم من هو قائم بأداء الطاعات ، ودائب على وظائف العبادات ، فى ساعات الليل التى تكون فيها العبادة أشق على النفوس ، وأبعد من الرياء ، فتكون أقرب إلى القبول ، وهو فى حال عبادته خائف راج ؟ لاشك أن الجواب لايحتاج إلى بيان .

والخلاصة — أمن هو مطيع كمن هو عاص ؟ إنهما لايستويان .

ثم أكد نفى التساوى ونبه إلى فضيلة العلم وشرف العمل به فقال :

(قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ؟) أى قل أيها الرسول لقومك هل يستوى الذين يعلمون ما لهم فى طاعة ربهم من الثواب ، وما عليهم فى معصيتهم إياه من عقاب ، والذين لايعلمون ذلك ، فهم يخبطون خبط عشواء لايرجون بحسن أعمالهم خيرا ، ولا يخافون من سيئها شرا .

وجاء هذا الكلام بأسلوب الاستفهام للدلالة على أن الأولين بلغوا أعلى معارج الخير ، وأن الآخرين درجوا فى دركات الشر ، ولا يخفى ذلك على منصف ولا مكابر .

ثم بين أن ما سلف إنما يفهمه كل ذى لبّ ، فأمثال هؤلاء على قلوبهم غشاوة لايفقهون موعظة ، ولا تنفع فيهم التذكرة فقال :

(إنما يتذكر أولو الألباب) أى إنما يعتبر بحجج الله ويتعظ بها ويتدبرها أهل العقول والحجا ، لا أهل الجهل والغفلة .

والخلاصة — إنه إنما يعلم الفرق بين هذا أو ذاك من له لب وعقل يتدبر به .

قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) .

المعنى الجملى

بعد أن نفى المساواة بين من يعلم ومن لا يعلم — أردفه بأمر رسوله أن ينصح المؤمنين بجملة نصائح :

(١) تقوى الله وطاعته لما فى ذلك من جزيل الفوائد ، فإذا تعذرت طاعته فى بلد تحولوا عنه إلى بلد يتمكنون فيه من الاشتغال بالعبادة والطاعة كما فعل كثير من الأنبياء ، ولهم كفاء ذلك أجر بغير حساب ، فلا يقدر بمكيال ولا ميزان .

(٢) إنه أمر بعبادة الله وحده مخلصا له الدين ، وقد قال كفار قريش للنبى صلى الله عليه وسلم : ما يحملك على هذا الدين الذى أتيتنا به ؟ ألا تنظر إلى ملة أبيك إبراهيم وجدك ، وسادات قومك يعبدون اللات والعزى ؟ فأنزل الله الآية وأمره أن يكون أول المسلمين ، وفى ذلك تنبيه إلى كونه رسولا من عند الله واجب الطاعة .

(٣) إنه أمر أن يقول لهم : إنى أخاف عذاب يوم القيامة إن عصيته ، وفى ذلك إيماء إلى زجر غيره عن المعاصى .

(٤) إنه أمر أن يذكر لهم أن الخاسر هو الذى يخسر نفسه ويخسر أهله ، لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم ، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابا لا رجوع بعده .

(٥) وصف لهم النار وأنها تحيط بهم من كل جانب ، وهذا من أفظع أنواع العذاب التى يخوف بها عباده .

الإيضاح

(قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم) أمر سبحانه رسوله أن يعظ المؤمنين ويحملهم على الطاعة والتقوى باجتناب معاصيه واتباع أوامره .

ثم علل وجوب الامتثال بقوله :

(للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) أى لمن أحسن فى هذه الدار ، وعمل صالح الأعمال ، وزكى نفسه فيها — حسنة من صحة وعافية ونجاح فى الأعمال التى يزاولها كفاء ما يتحلى به من تمسك بآداب الدين واتباع فضائله ، وحسنة فى الآخرة فيتمتع بجنات النعيم ورضوان الله عنه « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ » .

ثم رغبهم فى الهجرة من مكة إلى المدينة وصبرهم على مفارقة الأوطان فقال :

(وأرض الله واسعة) أى إنكم إذا لم تتمكنوا من التوفر على الإحسان والتقوى وصرف الهمم إلى العبادة فى البلد الذى أنتم فيه فتحولوا عنه إلى بلاد تستطيعون فيها ذلك ، واجعلوا أسوتكم الأنبياء والصالحين فقد فعل كثير منهم ذلك .

ثم ذكر ما لهم من رفيع المنزلة وعظيم الأجر على ذلك فقال :

(إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) أى ولهم على صبرهم أجر عظيم عند ربهم لا يقدر قدره ، كما وفّى من قبلهم أجورهم على هذه الشاكلة . وعن الحسين ابن على رضى الله عنهما قال : سمعت جدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أدّ الفرائض تكن من أعبد الناس ، وعليك بالقنوع تكن من أغنى الناس ، يابنى

إن فى الجنة شجرة يقال لها شجرة البلوى ، يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان ، يصبُّ عليهم الأجر صبًّا ثم تلا : (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) قال النحاس : من صبر على المعاصى يقال صابر ، ومن صبر على المصيبة يقال صابر على كذا .

ثم ذكر ما أمر به نبيه من الإخلاص فى الطاعة فقال :

(قل إنما أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين) أى قل أيها الرسول لمشركى قومك : إن الله أمرنى أن أعبده مفردا له الطاعة دون كل ما تدَّعون من دونه من الآلهة والأنداد .

وفى هـذا نعى لهم على تماديهم فى عبادة الأوثان ، والكلام عليه من وادى قولهم (إياكَ أعنى واسمعى يا جاره) .

(وأمرت لأن أكون أول المسلمين) أى وأمرت أن أكون أول المسلمين وسابقهم فى إخلاص التوحيد لله ، وإخلاص العبادة له ، والبراءة من كل ما دونه من الآلهة .

(قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) أى قل لهم : إنى أخاف إن عصيت ربى بترك الإخلاص له أو إفراده بالربوبية — عذاب يوم القيامة الكثير الأهوال والآلام .

وفى هذا من التعريض بهم ما لا يخفى .

(قل الله أعبد مخلصا له دينى . فاعبدوا ما شئتم من دونه) أى قل لهم : الله أعبد لاغيره لا استقلالا ولا اشتراكا ، مخلصا له عبادتى مبتعدا من الشرك والرياء ، فاعبدوا ما شئتم أن تعبدوه من دونه من الأوثان والأصنام ، وستعلمون وبال عاقبتكم حينما تلقون ربكم .

وفى هذا تهديد ووعيد شديد :

(قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) أى قل لهم

أيها الرسول : إن الخسران الذى لاخسران بعده — هو خسران النفس و إضاعتها بالضلال ، وخسران الأتباع الذين أضلوهم وأوقعوهم فى العذاب السرمدى يوم القيامة إذ أوقعوهم فى هُلكة ما بعدها هلكة .

(ألا ذلك هو الخسران المبين) أى هذا هو الخسران المبين الظاهر لكمال هوله ، وفظاعة شأنه .

ثم فصل ذلك الخسران و بينه بعد إبهامه تهويلا وتعظيما لأمره فقال :

(لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) أى لهم أطباق متراكمة من النار بعضها فوق بعض كأنها ظلل ، ومن تحتهم مثلها ، والمراد من ذلك أن النار محيطة بهم من كل جانب .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » وقوله : « لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » .

(ذلك يخوف الله به عباده) أى إنما يقص عليكم ربكم خبر ما سيكون لا محالة ، يزدجر عباده عن المحارم والآثام .

بعد هذا أمرهم بتقواه وحذرهم من عصيانه فقال :

(يا عباد فاتقون) أى يا عبادى بالغوا فى الخوف والحذر والتقوى ، ولا تتعرضوا لما يوجب سخطى ، وهذه منة منه تعالى منطوية على نهاية اللطف والرحمة .

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِى النَّارِ (١٩) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ

فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ (٢٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه وعيده لعبدة الأصنام — أردف ذلك وعد من اجتنبوا عبادتها وبعدوا عن الشرك ، ليكون الوعد مقترنا بالوعيد ويحصل بذلك كمال الترهيب والترغيب .

الإيضاح

(والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى) الطاغوت: الشيطان، ويطلق على الواحد والجمع ، وسميت عبادة الأوثان عبادة للشيطان ، إذ كان الآمر بها والمزين لها .

أى والذين اجتنبوا عبادة الأصنام وأقبلوا إلى ربهم معرضين عما سواه — لهم البشرى بالثواب العظيم من الله على ألسنة رسله حين الموت وحين يحشرون من قبورهم للحساب .

ثم مدحهم بأنهم نُقَّاد فى الدين يميزون بين الحسن والأحسن ، والفاضل والأفضل فقال :

(فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) أى فبشر هؤلاء الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت ، وأنابوا إلى ربهم وسمعوا القول فاتبعوا أولاه بالقبول وأرشده إلى الحق — بالنعيم المقيم فى جنات النعيم .

(أولئك الذين هداهم الله) أى هؤلاء هم الذين وفقهم الله للرشاد وإصابة الصواب ، لا الذين يعرضون عن سماع الحق ، ويعبدون ما لا يضر ولا ينفع .

(وأولئك هم أولو الألباب) أى وأولئك هم أصحاب العقول السليمة ، والفطر

المستقيمة ، التى لاتطيع الهوى ولايغلبها الوهم ، فتختار خير الأمرين فى دينها ودنياها.

روى أن هاتين الآيتين نزلتا فى ثلاثة نفر : زيد بن عمرو وأبى ذر الغفارى وسلمان الفارسى ، كانوا فى الجاهلية يقولون « لاإله إلا الله » .

ثم بين أضداد المذكورين أولا وسجل عليهم الحرمان من الهداية فقال :

(أفمن حق عليه كلمة العذاب ؟ أفأنت تنقذ من فى النار؟) أى أأنت مالك شئون الناس ومصرّف أمورهم ، فمن حقت عليه كلمة العذاب لعدم أهليته للكمال وتدسيته نفسه بولوغها فى الآثام والمعاصى — فأنت تنقذه من النار؟ — كلا ، ليس أمرهم إليك بل أمرهم إلى ربهم يجازيهم بحكمته وعدله .

ثم أعاد جزاء المتقين عناية بأمرهم بعد ذكر أضدادهم فقال :

(لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار) أى لكن الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه ، واجتناب محارمه ، لهم فى الجنة غرف طباق فوق طباق ، مبنيات محكمات تجرى الأنهار خلال أشجارها .

ثم أكد حصول ذلك لهم فقال :

(وعد الله لايخلف الله الميعاد) أى وعد الله هؤلاء المتقين بذلك ، ووعده الحق ، فهو لايخلف ما وعدهم ، بل يفى بوعده .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) .

شرح المفردات

فسلكه : أى فأدخله ، ينابيع : أى عيونا ومجارى ، ألوانه : أى أنواعه وأصنافه يهيج : أى يجف ، حطاما : أى فتاتا متكسرا .

المعنى الجملى

بعد أن وصف جلّت قدرته الآخرة بصفات توجب الرغبة فيها ومزيد الشوق إليها — أعقب ذلك بذكر صفات للدنيا توجب النفرة منها كسرعة زوالها وتقضّيها وشيكا ، تحذيرا من الاغترار بزهرتها ، والركون إلى لذتها ، فمثّلَ حالها بحال نبات يسقى بماء المطر فيخرج به زرع مختلف الأصناف والأنواع ، و بعد قليل تراه يجف و يصير فتاتا متكسرا ، فما أسرع زواله ، وأيسر تقضيه !.

الإيضاح

إنك أيها الرسول لتشاهد الماء وقد نزل من السماء فجرى عيونا فى الأرض فسقيت به أنواع مختلفة من النبات من بُرّ إلى شعير إلى أُرْز إلى نحو ذلك ثم نضجت وجفّت وصارت مصفرة بعد خضرة ونضرة ثم صارت فتاتا متكسرة ، فما أشبه حال الدنيا بحالها فهى سريعة التقضّى وشيكة الزوال ، فليعتبر بذلك أولو الحجا ، وليعلموا أن الدنيا كسوق قام ثم انفض ، ولا يغتروا ببهجتها ولا يفتتنوا بزخرفها .

ونحو الآية قوله : « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً » .

أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢) اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ

مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) .

شرح المفردات

شرح الصدر للإسلام : الفرح به والطمأنينة إليه ، والنور : البصيرة والهدى ، والقسوة : جمود وصلابة فى القلب ؛ يقال قلب قاسٍ : أى لايرقّ ولا يلين ، أحسن الحديث : هو القرآن ، متشابها : أى يشبه بعضه بعضا فى الحسن والأحكام ، مثانى : واحدها مثنى من التثنيه : أى التكرير ، تقشعر : أى تضطرب وتتحرك وتشمئز ، تلين أى تسكن وتطمئن ، الخزى : الذل والهوان ، يتذكرون : أى يتعظون ، غير ذى عوج : أى لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه ، قال :

وقد أتاك يقينٌ غير ذى عوجٍ ... من الإله وقولٌ غيرُ مكذوبِ

المعنى الجملى

بعد أن بالغ فى ذكر مايدل على وجوب الإقبال على طاعته سبحانه والإعراض عن الدنيا — أردف ذلك ببيان أنه لاينتفع بهذا إلا من شرح الله صدره ونوّر قلبه وأشعر نفسه حب العمل به ، ثم أعقبه بذكر أن من أضله الله فلا هادى له ، وأن من يتقى بيديه المخاوف صيانة لوجهه عن النار ليس حاله كحال من هو آمن لايفكر

فى مآل أمره ، وعاقبة عمله ، و بعدئذ ذكر أن هؤلاء المشركين ليسوا بدعا فى الأمم ، فلقد كَذَّبَ كثير قبلهم فأتاهم العذاب بغتة من حيث لايشعرون ، فأصيبوا فى الدنيا بالذل والصغار والقتل والخسف ، ولعذاب الآخرة أشد نكالا ووبالا ، ثم ذكر أن القرآن قد ضرب الأمثال للناس لعلهم يرْعَوون ويتذكرون ، بلسان عربى مبين لعلهم يتقون .

الإيضاح

(أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ؟) أى أفمن دخل النور قلبه فانشرح للإسلام لما رأى فيه من البدائع والعجائب المهيئة للحكمة ، الممهدة لقبول الحق والموصلة إلى الرشاد — كمن طبع على قلبه لغفلته وجهالته ؟ وقد روى أن علامة ذلك الانشراح الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل حلول الموت .

والخلاصة — هل يستوى من أنار الله بصيرته ومن هو قاسى القلب بعيد من الحق ؟

ونحو الآية قوله : « أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا » .

قال ابن عباس : من شرح الله صدره للاسلام أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : « تلا النبى صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقلنا يا نبى الله كيف انشراح صدره ؟ قال إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح ، قلنا : فما علامة ذلك يا رسول الله ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزول الموت» . وأخرج الترمذى عن ابن عمر «أن رجلا قال يا رسول الله : أى المؤمنين أكيس ؟ قال أكثرهم ذكرا للموت ، وأحسنهم له استعدادا ، و إذا دخل النور فى القلب انفسح واستوسع ، فقالوا ما آية ذلك

يا نبى الله ؟ قال الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت » .

ثم ذكر ما يدل على المحذوف الذى قدر فى الجملة السالفة فقال :

(فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) أى فالويل أشد الويل لمن قست قلوبهم من أجل ذكر الله الذى من حقه أن تلين منه القلوب ، فهم إذا ذكر الله عندهم وذكرت دلائل قدرته وبدائع صنعه اشمأزوا من ذلك وزادت قلوبهم قسوة .

قال مالك بن دينار : ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب ، وما غضب الله تعالى على قوم إلا نزع منهم الرحمة . وأخرج الترمذى عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لاتكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى » .

وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله تعالى: اطلبوا الحوائج من السمحاء فإنى جعلت فيهم رحمتى، ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم فإنى جعلت فيهم سخطى » .

ثم بين حالهم فقال :

(أولئك فى ضلال مبين) أى أولئك القساة القلوب الذين أعمى الله أبصارهم فى غواية ظاهرة لكل أحد لاتحتاج إلى عناء فى تفهم حقيقتها ومعرفة كنهها .

و بعدئذ وصف القرآن الذى يشرح الصدر و يلين القلب فقال :

(الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) أى الله أنزل أحسن الحديث قرآنا كريما يشبه بعضه بعضا فى الصدق والبيان والوعظ والحكمة ، كما تتشابه أجزاء الماء والهواء وأجزاء النبات والزهر، تُثنَى وتردد قصصه وأنباؤه،وأوامره ونواهيه،ووعده ووعيده ، إذا تليت منه آيات العذاب اقشعرّت الجلود ، ووجلت القلوب ، وإذا تليت آيات

الرحمة والوعد لانت الجلود ، وسكنت القلوب ، واطمأنت النفوس . قال الزجاج : إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله .

(ذلك هدى الله يهدى به من يشاء) أى ذلك الكتاب يهدى به الله من يشاء ويوفقه للإيمان .

(ومن يضلل الله فما له من هاد) أى ومن يخذله الله عن الإيمان بهذا القرآن والتصديق به ، فما له مُخرج من الضلالة ، ولا موفِّق لسلوك طريق الحق. ثم ذكر علة ما تقدم من تباين حال المهتدى والضالّ فقال :

(أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة) أى أكل الناس سواء ؟ فمن شأنه أن يتقى بوجهه الذى هو أشرف أعضائه العذابَ الشديد السيئ يوم القيامة ، (لأن يده التى كان يتقى بها المكاره فى الدنيا مغلولة إلى عنقه) ، كمن هو آمن لايعتريه مكروه ، ولا يحتاج إلى اتقاء محظور مخوف .

ثم ذكر ما ينال الكفار والعاصين من الإهانة فى ذلك اليوم فقال :

(وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون) أى وقيل تهكما واستهزاء لمن ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصى — ذوقوا وبال ما كسبتم فى الدنيا ، ودسيتم به أنفسكم حتى أوقعتموها فى الهاوية ، النار الحامية .

ثم ذكر ما أصاب بعض الكفرة من العذاب الدنيوى إثر بيان ما يصيب الجميع من العذاب الأخروى فقال :

(كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لايشعرون . فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) أى إن بعض الأمم الماضية التى كذبت رسلها أتاها العذاب بغتة من حيث لاتحتسب ولايخطر لها بالبال ، فلحقها الذل والصغار فى الحياة الدنيا ، فأصيبت تارة بالمسخ وأخرى بالخسف وثالثة بالقتل أو السبى أو نحو ذلك من ضروب النكال والوبال ، وإن عذاب الآخرة لأنكى عاقبة وأشد أثرا لو علموا ذلك واعتبروا به .

ثم بين أن فيما قصه القرآن عليهم من الأمثال والمواعظ عبرة لهم لو كانوا يعقلون فقال :

(ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون . قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون) أى ولقد مثلنا لهؤلاء المشركين بالله أمثال القرون الخالية تخويفا لهم وتحذيرا ، ليتعظوا ويزدجروا ويقلعوا عماهم عليه مقيمون من الكفر بربهم، بكلام عربى لا لبس فيه ولا اختلاف ، ليفهموا ما فيه من مواعظ ، ويعتبروا بما فيه من حكم ، فيتقوا ما حذرهم فيه من بأسه وسطوته ، وينيبوا إليه ويفردوه بالعبادة ، ويتبرءوا من الآلهة والأنداد .

ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ، الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) .

شرح المفردات

ضرب المثل : تشبيه حال عجيبة بأخرى وجعلها مثلا لها ، متشاكسون : أى مختلفون يتنازعون لسوء طباعهم وشكاسة أخلاقهم ، سلما لرجل : أى خالصا لسيد واحد ، والميت (بالتشديد) من لم يمت وسيموت ، والميت (بالتخفيف) من قد مات وفارقته الروح ، قال الخليل أنشد أبو عمرو :

وتسألنى تفسيرَ مَيْتٍ وميّتٍ	فدونك قد فسرتُ إن كنتَ تعقلُ
فمن كان ذا روحٍ فذلك ميّتٌ	وما الميْتُ إلا من إلى القبر يُحْمَلُ

تختصمون : أى تحتكمون للقضاء .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الحكمة فى ضرب الأمثال للناس ، وهى أن تكون عظة وذكرى لهم ليتقوا ربهم ، ويرعووا عن غيهم وضلالهم — أردفه بذكر مثل يرشد إلى فساد مذهب المشركين وقبح طريقتهم ووضوح بطلانها ، ثم أعقبه ببيان أن الناس جميعا سيموتون ثم يعرضون على ربهم ، وهناك يستبين المحق والمبطل ، والضال والمهتدى ، فلا داعى إلى الجدل والخلاف بينك و بينهم .

الإيضاح

(ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل، هل يستويان مثلا ؟) أى ضرب الله مثلا لقومك وقال لهم : ماذاتقولون فى عبد مملوك قد امتلكه شركاء ، بينهم اختلاف وتنازع ؛ فهم يتجاذبونه فى حاجهم وهو حائر فى أمره إذا هو أرضى أحدهم أغضب الباقين ، و إذا احتاج إليهم فى مهمّ رده كل منهم إلى الآخرين ، فهو فى عذاب دائم وتعب مقيم ، ومملوك آخر له مخدوم واحد يخدمه مخلصا وهو يعينه على مهماته ، و يقضى له سائر حاجاته ، فأىّ العبدين أحسن حالا وأحمد شأنا ؟ — الجواب لايحتاج إلى بيان — هكذاحال المشرك الذى يعبد آلهة شتى يبقى ضالاً حائرا لايدرى أىّ تلك الآلهة يَعبد ؟ ولا على أيهم يعتمد ؟ وممن يطلب رزقه ؟ وممن يلتمس رفده ؟ أما من لم يثبت إلا إلهًا واحدا فهو قائم بما كلفه ، عارف مايرضيه وما يسخطه — لاشك أن البون بين حاليهما شاسع .

وقوله (هل يستويان مثلا) أى هل تستوى صفتاهما وحالاهما ؟.

(الحمد لله) أى بعد أن بطل القول بإثبات الشركاء والأنداد ، وثبت أن لا إله إلا هو — ثبت أن الحمد لله لالغيره .

(بل أكثرهم لايعلمون) أى بل أكثر الناس لايعلمون أن الحمد له لالغيره فيشركوا به سواه .

ولما لم يلتفتوا إلى الحق ولم ينتفعوا بضرب المثل ، أخبر سبحانه بأن مصير الجميع إلى الله ، وأنهم يختصمون يوم القيامة بين يديه وهو الحكم العدل ، وهناك يتميز المحق من المبطل قال :

(إنك ميت وإنهم ميتون . ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) أى إنك ستموت وهم سيموتون ثم تختصمون عند ربكم ، فتحتجُّ أنت عليهم بأنك قد بلَّغت فكذبوا ، ويعتذرون هم بما لا طائل تحته ، وبما لا يدفع عنهم لوما ولا تقريعا ، ويقول التابعون للرؤساء : أطعناكم فأضللتمونا ، ويقول السادة : أغوانا الشيطان وآباؤنا الأولون .

عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « من كان عنده مظلمة لأخيه من عرَض أو مال فليتحلله اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحملت عليه» رواه البخارى .

وعن أبى هريرة قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتدرون من المُفْلِسُ ؟ قالوا المُفْلِس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن المفلس من يأتى يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيُعْطَى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فَنِيَتْ حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار» أخرجه مسلم .

وعن أبى سعيد الخُدْرى قال : لما نزلت هذه الآية كنا نقول : ربنا واحد ، وديننا واحد ، ونبينا واحد ، فما هذه الخصومة ؟ فلما كان يوم صِفِّين ، وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا نعم هو هذا .

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، ووفِّقْنا لما فيه رضاك .

تم هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة لثلاث بقين من ذى القعدة من سنة أربع وستين وثلثمائة وألف هجرية ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه .